

## المقدمة

شاءت إرادة الله أن يجعل من الطين بشرا سويا ، فكان آدم عليه السلام .

وشاءت إرادة الله أن يجعل من البشر نورا ، فكان محمد صلوات الله عليه .

وكان هذا الوجود لم يقدر إلا ليشهد انطلاقات لارتقاعات من الأدنى إلى الأعلى ، بل أن الوجود ذاته لا يتحقق إن لم يضم بين ثناياه درجات ليرتقى ويصعد من خلالها الإنسان ، ويتحقق الوجود أكثر وأكثر ، ويتمكن الموجود أكثر وأكثر إذا استمر ودام وتواصل صعوده على تلك الدرجات ، يدفعه في ذلك وإلى ذلك مدد يستمده من فطرته النقية والسوية - وأيضا - ما ترفده السماء من مدد آخر يعينه في مسيرة الارتقاء ، إذا حالت حوائل بينه وبين الفطرة أن تعينه في صعوده وارتقائه ، وخيرا الموجودين - أو من قدر له - من جمع بين الفطرة السوية والنقية ومدد السماء ، فهنا يتم الجمع بين الخير والخير ، ويكون هو - الموجود - مجمع أو ملتحق نور على نور .

وهذا متحقق في محمد - صلوات الله عليه - ، ولأمر ما جعله الله - عز وجل - خاتم النبيين والمرسلين ، وكأنه آخر درجة في سلم الارتقاعات ، أو آخر حلقة في سلسلة الصعود إلى أعلى .

إعلام وإخبار أنه - عنده - نهاية الارتقاعات وختام الصعود ، فليس بعده إرتقاء ، ولا يتجاوزه صعود .

ولأنه الخاتم فقد جمع له وجمع فيه كل ما يحتاجه الناس من مدد وعون .

ولأنه الخاتم فقد تجسدت فيه البشرية كآتم وأكمل وأصلح ما يكون .

ولأنه الخاتم فقد تمثلت فيه الإنسانية كآشرف وأرقى وأسمى ما تكون .

ولأنه الخاتم فقد وصل محمد إلى نهاية ما يمكن للقدرة البشرية أن تصل

إليه ، ليس هذا فحسب بل تجاوز هذا بمراحل لم يصل إليها نبي أو رسول قبله .

وقد أدرك بنفسه هذا الأمر حتى قال في حجة الوداع وهو يخطب الناس  
"أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعدد في أرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يطمع  
فما سوى ذلك فقد رضى به ، مما تحقرون من أعمالكم ! فاحذروه على دينكم !"

وفي يوم عرفة من هذه الحجة العظيمة الجليلة نزل قوله عز وجل :  
﴿ أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ المائدة ٣  
إكمال دين فلا نقص .  
إتمام نعمة فلا قصور .

رضى من الله بأن يكون لإسلام هو الدين المعترف به من قبل الله - عز وجل -  
﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا  
جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَنِيًّا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِبَيِّنَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾  
آل عمران : ٩٩

﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾  
آل عمران : ٨٥

ما شعور محمد - ﷺ - وهو يتلو تلك الآيات ، وأن دعوته ورسالته قد  
حازت رضا وقبول الله - عز وجل - ؟

أظن أنه أسعد من وطأت قدماه أرض هذه البسيطة . أن جعل الله دعوته  
ورسالته مقبولة ومرضي عنها . ولأنه يعلم أنه قد بلغ وأدى ، وأنه لم يكن ليتسنى له  
ذلك لولا العون والمساعدة والتوفيق من الله ، وأن المنة والنعمة والفضل الذي منحه  
الله لحمد لم يمنح مثله لأحد من خلقه ، فقد عبد الله - على قدر ما مكنته قدرته  
وأكثر - بما يتوازي وهذه المنة والنعمة والفضل ، فكان أعبد العابدين وأخلص  
الموحدين ، وأقرب المخلوقين إلى الخالق ، وكان - وما يزال - أشد حباليني  
الإنسان ، فقد كانت أمنيته الكبرى أن يهدى جميع البشر - بلا استثناء - إلى  
الله ، مهما تكبد من مشاق وتحمل من صعوبات ، دافعه في ذلك أمران :

- أن البشرية لن يقدر لها الأمن والاستقرار والسلام إلا إذا وضع الله نصب عينيه ، وأنه خلق الخلق ليتحابوا ويتعاونوا ويتعاطفوا ويتراحموا ويسود بينهم الحب والمودة .

- أن لله حق على الناس ، وهو التوحيد والعبادة ، وأنه بدون تأدية هذا الحق فلا معنى للوجود ، وأن الإنسان مجرد جرم تائه في الفضاء السرمدي ، لا يدري لماذا خلق ولا ما جدوى هذا الوجود ، لذا فالتوحيد والعبادة هما ما يجعلان للوجود معنى وقيمة ؛ لأنهما من أقوى الأواصر وأمن الوشائج التي تربط بين الإنسان ومبدع هذا الوجود .

أدرك محمد - ﷺ - بفطرته النقية وطبعه القويم تلك الحقائق الكبرى واستطاع بكل كفاءة ومقدرة أن يبسط تلك الحقائق . بأن يجعلها أسلوب حياة وليست أفكار هائمة في الأذهان أو أقوال حائرة على الألسنة ، وهنا الفرق الشاسع بين محمد وغيره ، أو هذا ما أعطى محمدا هذا الطراز النادر والعظيم والراقي من الشخصية ، إنه لم يكن يدعو الناس أن يتراحموا أو يتناصفوا أو يتعادلوا أو يتحابوا أو يؤثر بعضهم بعضا ، وإنما كان هو نفسه الرحمة والإنصاف والعدل والحب والإيثار ، حينما تقرأ في سيرته ، ينالك العجب ، أن البعض لم يؤمن لأن محمد قد جادله أو ناقشه أو حاروه فأقنعه فأقتنع فأمن ، وأن البعض لم يؤمن لأن نفسه قد حضعت لعظمة القرآن وبلاغته ، ولكن البعض قد آمن بمحمد وبما جاء به ، حينما رأى أفعال وتصرفات محمد ، حينما لمس أسلوب وطريقة محمد في حياته وفي تعامله مع من حوله ، كبيرا أو صغيرا رجلا أو امرأة شيخا أو شابا ، حيا أو ميتا مؤمنا أو كافرا ، مخلصا أو منافقا ، صديقا أو عدوا ، حيوانا أو جمادا . حينما اقترب ودنا من شخصية محمد وبهرته هذه الشخصية في بساطتها ووضوحها ورقبها وسموها وصفائها وأريحيته ، أدرك أنه أمام نوعية مختلفة من البشر، طراز آخر من الناس ، شخصية ترغمك إراديا واختيارا - وهنا العجب - أن تحبها

وتوقرها وتجلها وتطيعها فيما أمرت به ولم تؤمر به ، بل تدفكك دفعا أن تضحي  
بأثمن ما لديك في سبيل أن تنال رضاها .

تأمل أخر خطبة خطبها رسول الله وهو في مرضه الأخير ، وتأمل - جيدا -  
حالته الصحية .

"واشدت وطأة المرض على رسول الله ، واتقدت حرارة العلة في بدنه .  
فطلب أن يأتوا بماء يتبرد به .. ماء كثير !!: (( أهرقوا على سبغ قرب من  
أبار شتى )) .

قالت عائشة : فأقعدهنا في مخضب لحفصة ، ثم صببنا عليه الماء ، حتى  
طفق يقول : (( حسبكم . حسبكم )) .

وعندما أحس الرسول بأن سورة الحر تظلت عن بدنه ، استدعى الفضل  
ابن عمه العباس ، فقال : خذ بيدي يا فضل - وهو موعوك معصوب الرأس - قال  
الفضل : فأخذت بيده حتى دخل المسجد ، وجلس على المنبر . ثم قال : (( ناد في  
الناس )) ، فاجتمعوا إليه .

كانت طهيرة نخلها الكأبة وتغمرها الرقة . اشرأت فيها الأعناق إلى  
الرجل الذي أحيا سواف القلوب ، وأخرجهم وذرياتهم ونسانهم ، من الظلمات إلى  
النور ، تطلعت إليه الأعين الحائرة ، فرأته متعبا .

انهزمت العافية في بدنه الجلد ، أمام المرض العاتي .  
إلا أنه أخذ يحدثهم ويربيهم ، على عهده به دائما . وأنصتوا ، فإذا هم  
يسمعون منه عجبا .. إنه لما أحس بدنو أجله ، أحب أن يلقي الله ولبس هناك بشر  
يطلبه يتبعه .

إنه تحرى العدالة في شئونه كلها لكن من يدري ؟ ربما عرض له سهوما  
يعرض لبني آدم ، أو أخطأ ، فحار ، وهو الذي يبرأ من الجور وذويه !

إذا ليخاطب الناس في هذا حتى يستريح ضميره .. فقال : (( أما بعد أيها الناس . فإني أحمد الله إليكم الله الذي لا إله إلا هو . فمن كنت جلدت له ظهرا ، فهذا ظهري فليستقد منه ! ومن كنت شتمت له عرضا ، فهذا عرضي فليستقد منه !

ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني . ألا وإن أحبكم إلى من أخذ مني حقا ! إن كان له . أو أحلني منه فلقيت الله وأنا طيب النفس . وقد أرى أن هذا غير مغن عني حتى أقوم فيكم مرارا )) .  
قال الفضل : ثم نزل فصلى الظهر . ثم رجع فجلس على المنبر . فعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرهم .

فقام رجل فقال : يا رسول الله .. إن لي عندك ثلاثة دراهم ؟  
فقال : (( أعطه يا فضل )) .

ثم قال النبي : (( أيها الناس : من كان عنده شيء فليؤده . ولا يقل : فضوح الدنيا ، إلا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة )) !  
فقام رجل فقال : يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله .  
قال : (( ولم غللتها )) ؟ قال : كنت محتاجا ..  
قال : (( خذها منه يا فضل )) .

ثم قال : (( أيها الناس .. من خشي من نفسه شيئا فليقم أدع له )) .  
فقام رجل فقال : يا رسول الله إنني لكذاب ، إنني لفاحش ، إنني لنؤوم .  
فقال النبي : (( اللهم أرزقه صدقا ، وإيمانا ، وأذهب عنه النوم )) .  
ثم قام رجل آخر فقال : والله يا رسول الله إنني لكذاب ، وإنني لمناقق ، وما من شيء إلا قد جنيته .

فقام عمر بن الخطاب فقال له : فضحت نفسك .

فقال النبي : (( يا ابن الخطاب .. فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة  
اللهم أرزقه صدقا ، وإيمانا ، وصير أمره إلى خير ))

١ - فقه السيرة - الشيخ محمد الغزالي - صفحة ( ٣٩٦ وما بعدها )

وهذا الكتاب عبارة عن نقاط وخطوط لمحاولة - نرجو من الله أن يوفقنا إليها - تحديد بعض - وليس كل - ملامح وسمات تلك الشخصية التي تعالت أن يحيط بها نظم من الشعر أو نثر من الخطب كما يقول الشاعر، ومع ذلك فإن شخصية محمد - ﷺ - من البساطة والوضوح ما تجعل أي إنسان يكتب عنه ولكن ليس معنى أن كتبت عن شخصية أو قرأت عنها ، أنك عرفت حق المعرفة فما تزال النفس الإنسانية - للآن - سرا غامضا يستعصي على كل دراسة أو بحث ، فأنت عاجز عن معرفة حقيقة شخصية من يجلس بجوارك ، بل عاجز - وهذه حقيقة - عن معرفة نفسك التي بين جنبيك ، فما بالك بشخصية النبي ، والكثيرون يقولون أنهم يعرفون كل شيء عن شخصية النبي محمد منذ أن كان طفلا حتى توفاه الله ، حتى أنهم ليلقون الخطب الطوال ، ويدبجون المقالات في الجرائد والمجلات ، ومع ذلك فإن الكثيرين يجهلون الكثير والكثير عن محمد ، فالمعرفة - هنا - ليست ذات جدوى إن لم تقربك قريبا حميما من شخصية النبي ، فقد قرأ الكتب والمراجع عن شخصية النبي ، ولا تقترب قيد أسلة من شخصيه ، وقد قرأ ورقة واحدة أو تسمع عنه د - أو حديثا ، فتشعر أنك تعيش معه تحالسه نناقشه تحاوره تشعر به شعورا حقيقيا ، من لحم ودم وأعصاب ، حدث بواصل فكري ونفسي ووجداني وروحاني ، حدث نوع من (( التشرّب )) لشخصياتهم ، وأظن أن الأنبياء لا يرتضون بديلا عن ذلك ، وقد كتبت في أحد فصول كتاب (( شخصية موسى النبي )) " لأنك مع شخصية النبي بصفة عامة مطالب أن تكون قريبا جدا منها وبالطبع هذا القرب ليس مكائيا ولا زمانيا ، لأنه محال ، ولكن القرب العقلي والبدني ووجداني ، قريبا من تلك الآمال النبيلة والأهداف الشريفة والمقاصد السامية التي يسعى كل نبي أن يحققها ... رغبته الأكيدة والصادقة في إسعاد البشرية بعد أن يخلصها من كل الشرور والأدران ، أمنيتها أن يصوغ من الإنسانية المعذبة المشتتة المتنازعة المتفرقة كيانا واحدا متجانسا متفهما متوافقا مستمتعا بحياته ، محققا المقصود الإلهي من الوجود الإنساني .

أن تكون قريبا جدا من تلك الروح المعذبة القلقة التى ما خلقت إلا لتحاهد جهادا عظيما ، وتكافح كفاحا جليلا ، من أجل إنقاذ الغرقى من بحار الإثم ، من أجل إحياء الموتى فى قبور الكفر والعصيان . من أجل إرشاد الضالين فى صحراء الطلم والاستبداد ، من أجل تنبيه الغافلين عن الغاية والهدف من وجودهم فى تلك الحياة .

أن تكون قريبا جدا من هذا الضمير اليقظ دوما ، الذى يضىء ويشقى نفسه من أجل أن يرتفع بالبشرية إلى مكان ومكانة تستشرف منه أنوار العبودية لخالق الكون ؛ لتشهد له بالوحدانية ، لأن جوهر سعادتها فى هذا التوحيد .

ومع موسى النبى - بصفة أخص - مطالب أن تكون مكانه ؛ لتشعر بما يشعر به ، تفكر فيما يفكر فيه ، أن تضع نفسك فى نفس المواقف التى ساقته الأقدار أن يكون فيها ، فهى مواقف نادرة وعجبية ، لم يسبق لأحد من البشر أو الأنبياء أن مر بها ، مواقف قاهرة لمن لم يؤت قدرا من العزم والقوة والصلابة وإيماننا راسخا ثابتا برسالته .

مطالب أن تغوص فى أعماق وأغوار تلك النفس الجليلة النبيلة ؛ لتصل إلى المكون والمحرك الأول لكل أفعال وتصرفات تلك النفس العملاقة العظيمة .  
مطالب أن تستبطن هذا المخلوق المنقذ والمشتعل بنار ونور حب العلم والمعرفة ، والمشغوف والمتيم بالوصول إلى أقصى ما يسمح به العقل البشرى ويحيطه ، بل أن يتجاوز ذلك ليعى ويدرك ما وراء تلك الحدود .

مطالب أن تكون موسى الرؤية والإدراك والتصرفات والأفعال .  
بغير هذا .... أنت لا تكتب عن النبى .... وإنما عن أى شخص آخر .  
بغير هذا .... أنت لا تكتب عن موسى .... وإنما عن شخص آخر يشبهه أو يتسمى باسمه .

بدون كل هذا ، أنت تبعد عن الشخصية ، بل تنأى الشخصية عنك ...  
وبالتالى تضل عن الحقيقة أو تضل الحقيقة عنك .

ودعنا لا ببالغ - حتى وإن بالغنا - إذا قلنا إن شخصية النبي هي التي تختار من يكتب عنها. لأنها تضع شرطا واحدا لمن يريد أن يكتب، وهذا الشرط هو (( الحب )) .

ولا نقصد بالحب هذا الميل أو النزوع الوجداني الغامض والمبهم في نفس الوقت نحو شخص بعينه ، وإنما نقصد بالحب هذه الرغبة المتأجحة والمشتعلة والمحفزة والمثيرة للإنسان أن يعرف أى شئ وكل شئ ، عن شخصية النبي ، ليست معرفة أو فهم أو وعى أو إدراك عقلاى ، وبسبب - - - - - بوحداى ، وليست امتراح كيانى ، وإنما نوع من (( التشرب )) إلى حد الإرتواء بشخصية النبي .

سعى حثيث لا ينقطع ولا يتوقف . ولا يعتر نحو تلك القمة من الكمال والتمام البشرى .

محاولة نبيلة لسبر أغوار تلك الشخصية التي وقع اختيار الله عليها لتكون رسولا عنه - عز وجل - إلى الإنسانية .

رحلة شريفة مع وهى تلك الشخصية التي نجحت أن تؤدي مهمتها وتقوم بدورها بكل شجاعة وانتدار ، فى أن تمهد وتذل وتثير وتقيم طريقا إلى الله ، وتأخذ بيد الإنسانية لتهدئها إلى خالقها وبارئها ، ومنذ هذا الكون العظيم ، وما فيه من دلائل وبراهين وعظات وعبر ، قد سديلا إلى القلب من الإيمان واليقين " <sup>٢</sup>

إبن الأمر مع الأنبياء - صلوات الله عليهم - بصفة عامة . ومع النبي محمد بصفة خاصة . أكبر من مجرد قراءة أو كتابة أو بحث أو دراسة ، ولكن الأمر - كما قلت - نوع من (( التشرب )) ، والتشرب في حاجة إلى حب ، والحب في حاجة إلى المعاشة ، والمعاشة في حاجة إلى وقت ، قد يطول مستغرقا العمر كله ، وقد لا نصل إلى تلك الغاية الشريفة ، وقد يقصر . حتى أنك لا تشعر أنك أنفقت لحظات لتصل ، وليس المهم أن نصل أو لا نصل ؛ لأن هذا الأمر ليس بأيدينا ، ولكن حسبنا أن قمنا بأشرف محاولة وهي الاقتراب والدنو من أشرف وأطهر خلق الله ، محمد رسول الله .

٢- شخصية موسى النبي - محمود القليني - صفحة (٥ ، ٦)